أَنْ نَنظُر لِلعذراء بِطريقة يَسوعْ ونُحِبُّها

ماذا نعمل لكيّ نَتَعَلَّمْ أن نحب بشكل أفضل العذراء؟ يقول لنا الإنجيل أنَّه قبل أن يقول يسوع للقديس يوحنا – وفيه (في يوحنا) لنا جميعًا – *"هذه أُمُّكَ"* (يو 19: 27)، الرب نفسه فعل شيئًا واحدًا: *"فرَأى يسوعُ أُمَّه"* (يو 19: 26). نُكرر اليوم فعل الرب المصلوب هذا: أيّ أن نَنْظُرْ إلى العذراء بواسطة عيون يسوع، لإكتشاف كيف رأى الرب أُمَّهُ وماذا حَرَّكَت فيهِ هذه النظرة العميقة.

1. ماذا ترى عيون يسوع في مريم؟

أ- جَمَالَها

جمال العذراء واضح. ليس بشيءٍ سخيف أنّ نَعتَقِدْ أنَّ الله قد عمل بلطف وكمال كبيرين ذلك الجسد المُقدَّس الذي فيه وَجَبَ أَنْ يَتَشَكَلْ الحمل لأجل الذبيحة، وأَنَّهُ وَجَبَ أَنْ يُصبح مَعْبَدَاً للثالوث الأقدس. جَسَدٌ لا يوجَد فيه آثار للخطيئة الأصلية. وهذا الجمال الذي لا يُمكن مُقارَنَتَه تَمَّ بالتأكيد العناية به من قبل إبنَها، ومَلَأَهُ بالإعجاب والإحترام. لكن نظرة يسوع لم تتوقف أمام هذا الجمال الرائع ولكِنَّها اخترَقَتْ نَفسَ أُمِّه، مُكتَشِفَةً جَمالاً أكثر عُمقاً ومُخَبّئً: الجمال الرائع للنِّعمة والفضائل التي تُزين قلب مريم. في الواقع، إنَّ الملاك في البِشارة قد سَلَّمى على مَريَم بكلمة *مُمتَلِئة نعمة*، وكَأَنَّهُ إسمٌ خاصٌ بِها، كَلَقَبْ، وكأَنَّهُ شيء حَصريٌ لها فقط. وهذا الإتحاد الوثيق جدًا مع الله تَزايَدَ يومًا بعد يوم، دقيقةً بَعدَ دقيقة، طوال حياتها، خصوصاً في اللَّحظات الرئيسية لِلفِداءْ. كم سَيَكون مُذهلاً هذا الجمال لنفس العذراء في عيونِ يسوع!

وكذلك فَضائِلَ نَفسِها: الإيمان؛ من خلاله آمَنَتْ بدون أي شك بجميع ما كَشَفَهُ الله لها، الرجاء؛ من خلالهِ وَثَقَت بالوصول إلى الحياة الأبدية بِفَضل الرحمة والقدرة الإلهية، المحبة؛ مِنْ خِلالِها أَحَبَّتْ الله من كل قلبها الطاهر وأَحَبَّتْ الآخر تَكريماً لِـ الله، حُبٌّ لم يَتِم بَذلُه بسبب الجحود التي أحاط بها، ولا من الخيانة والتَّخاذُل من الأكثر قُرباً، ولا من الكراهية المستمرة من قِبَلْ الأعداء. يسوع أيضًا رأى التواضع العميق والطهارة المُشرِقة وثَبات القُوَّة، إلى جانب كل الفضائل الأخرى.

ب. صَلَاحَها

الكثير سَيَكونوا شهوداً عن صلاح هذه المرأة الإستِثنائِيَّة، الذين رأوا سمُوَّ خُلُقِها، قَلَقَها لِمساعدة المُحتاجين، إجتِهادَها في وَسَطْ الفِقر. لكن نظرة يسوع ذهبت أبعد من ذلك، ولاحَظَ بشكل واضح صلاح أُمِّه الداخليّ، أي إستَعدادِها الدائم لِفعل الخير، دائِمِةْ الاستعداد لِتُنَفِّذ ما أرادهُ الله مِنها، بَساطَتُها واستقامة نِيَّتَها.

رَأى يسوع كيف أنَّ مريم أرادَتْ أن تفعل كُلَّ ما أظهَرَهُ لها الله في ضميرِها والذي وَجَبَ عَلَيها فِعلَه، دون إرادة مُزدَوَجة، دون مصالِح مَخفِيَّة، دون أن تطلب من الله أسبابًا.

ج. ألمها

حقيقة أخرى سامية كَشَفَتها عيون يسوع في نفس العذراء؛ وهي المُعاناة التي وَجَبَ عَلَيها تَحَمُّلُها مرات عديدة. بعض الآلام كانت واضحة لِمَنْ كانَ حَولَهَا: الخوف من الهروب إلى مصر وانعدام الأمان لوضعهم كأجانب، ثم وفاة يوسف، والقلق لأجل مؤامرات الفريسيّين ضد يسوع، إلخ. لكن عيون يسوع وَصَلَتْ إلى الألم الأكثر خصوصية وشِدَّة في عمق نَفسِها. يسوع كان يَرى قلبَ أُمِّه، العزلة التي كانت فيها بجانب الصليب، تَحديداً هيَ؛ وهي التي كانت دائمًا بجانب المُحتاج، حزن مريم أمام خطيئة البشر، وأمام الإنفِصال عن ابنها. تَذَكَّرَ يسوع المغادرة المؤلمة مَع أُمِّه بعد العشاء الأخير، قبل الذهاب إلى جتسمانِيّة (بستان الزيتون). ولِقاءهم المؤلِمْ في الطريق المؤلِمة (طريق الآلام)، حامِلاً هو الصليب. والآن، كِلاهُما مُتألِّمَين ببطء في الساعات الطويلة لِلجُلجُثَّة...

2. ماذا يُنتِجْ كل هذا في المسيح؟

بلا شك، التَّعَمُّق بوضوح و صفاء شَديدَين في نفسِ أُمِّه، ومعرِفَتَها بشكل عميق لا يمكن أن يَدَع قلب المخلص غير مُبالياً، لَمْ يَقدِرْ أَنْ يَبقى غيرَ مبالياً امام جمالٍ، صلاحٍ، ومعاناةٍ هائلة كهذه. وبالتالي، حُبٌ مُتَّقِدٌ لِأُمّه لِهيَ رَدِّةْ الفعل الأولى ليسوع:إذا هي لم تحتفظ بشيء لها ولم تُخفي أي شيء عن إبنِها، فكيف يمكن ليسوع أن لا يُحبَّها وبِشِدَّة؟ إلى جانب هذا، ردة فعل أُخرى في قلب يسوع كانت فرحًا وعَزاءً عَظيمَين: فهو يرى أن جهوده وأوجاعه في آلام الصليب ليسوا دون جَدوى في مريم، بل إنها تَستَغلْ كل قطرة دم تسقط من الصليب. يَرى أَنَّه يُمكن أن يثق بالكامل فيها، وأَنَّها لن تّخذُلُه أبدًا، وإنَّها الوحيدة التي تفهم ما يجري في تلك اللَحَظات. وبالتالي هذا الحب المُتَّقِد وهذا العَزاء الذي يَدفَعَه لِلنَظَرْ في أعماق أُمِّه، يَشعِل رغبة لا يمكن مُقاوَمَتَها لمكافأتها على هذا القدر من الإخلاص والحب الكثير الخالي من المَصالِح. لذلك الرب يُريدُ أَنَّ قلق مريم لِأجلِه ولِأَجِلْ جميع البَشَرْ أَنْ يَتم تعويضه، ويَمنَحَها لقب ملكة السماء ومُشرِفَة على الرحمة الله. وفي هذه الرغبة بِمُكافَأَتِها هُنالِكَ أيضًا الإرادَة الإلَهِيَّة لضمان أَنَّ مريم ستكون معروفة ومحبوبة دائماً بشكل مُتَزايِدْ، كما يقول كتاب الأمثال: " *يَقومُ بَنوها ويُهَنِّئونَها* " (أمثال31: 28) .

3. وماذا يُنتِج فينا أيضاً؟

بنفس الطريقة التي أَطلَعَنا بِها يَسوع على كُلّ ما سَمِعَهُ مِن الآب (يو 15: 15) ووعدنا بِالروح القدس لِيُعَلِّمَنَا تلك الأشياء التي لم نَستطع أَنْ نَتَلَقَّاها، بهذه الطريقة يريد أَنْ يُطلِعَنا على نَظرَته القادِرة على إختِراق ومَعرِفَتَهُ العَميقَة لِروح (نفس) مريم، ويُريدُ أَيضاً أَنْ تُولَدْ مِنْ جديد فينا نَفس الأحاسيس (المَشاعر) التي تتفَجَّر من قلبه الأقدس عندما كان يَتَأمَّل الجمال، الصلاح، والعَذابْ المُختَبِئون في نفسِ العذراء الفائقة القداسة.
بهذه الطريقة سَيُمكِنُنَا أَنْ نَتَعَلَّمْ أن نحب العذراء مريم كما يُريد الله نفسه أن يتم مَحَبَّتَها.

لِتمنحنا هذا ملكة السماء نَفسَها لِأجل خلاصنا الأبدي.